الطريق إلى البصرة

ما مر عهد، والجنوب، ليس فيه جوع!

التهريب على قدم وساق في ابي الخصيب ولا صلاحيات للشرطة!

عبد الكريم العبيدي

لعل اقسى ما كتمته، حتى الآن، هو الحديث عن موت الاشياء التي ظننتها حية.. الأشياء التي (كنت) كلما تذكرتها بدت طرية، وبدا انفصالي عنها اكثر خطأً.. ولكن هذه الـ (كنت) اللعينة، ربما سأطلقها لآخر مرة على ذلك الجنوب العجوز الذي خيروه بين الموت والموت فاختارهما معاً!!

الجثة الأولى!

من العشائر تبدأ المعاينة دائماً.. هذه المرة إلى ابي الخصيب، إلى جنوب البصرة، إلى (لبها) - البصريون، هم اهالي البصرة اينما سكنوا، او حلو، أما سكنة (ابو الخصيب) حصراً، فيقال عنهم (بصاروة.. خصيباويين، من اللبة) - ساذهب إلى (اللبة) إذن.. إلى الجنوب.

طريق واحد ضيق سأسلكه باتجاه النخيل والجراديغ والمراكب والمهيلات.. الحرارة مرتفعة جداً، فالرياح (شرقية)، والحياة، إن وجدت، فستبدو أميبية، في اطوارها الأولى!

تحركت السيارة ببطء، وبدأت أصغي بتلذذ، من أول (دقة هورن) إلى وقع لهجة خصيباوية طازجة، يتحدث بها الركاب من حولي.. كان اغلبهم يرتدي دشاديش بيض، ويعتمر الكوفية والعقال، وبيده مسبحة طويلة.

قال احدهم، وهو يلاحظ صاحبه ضجراً من شدة الحر: (تو الناس، تموز بعد ما يه) / أي اصبر، فلم يحن حر تموز!..

ولكن الحرارة كانت هي العلامة الأولى التي تجمعنا، وكان الهواء ساخناً ورطباً جداً..

اجتازت السيارة شوارع العشار المزدحمة بالسيارات القديمة والجديدة وراحت تغوص رويداً في اشجار النخيل،وبيوت الطين، وطقطقة الجسور القديمة.

كان الشارع يحاذي شط العرب من جهة اليمين - لا بد أن تعرف ذلك من كثرة السفن الراسية، التي لا نرى منها سوى (رؤوسها) فقط - شاهدت مركباً في طور الانشاء.. خشبة سميكة مقوسة على شكل نصف دائرة تقريباً وتتقاطع معها اخشاب على شكل انصاف دوائر مفتوحة إلى الاعلى..

كان يشبه هيكلاً عظيماً لحوت ضخم.. وكان العمال من حوله يغلفون اجزاءه ويثبتونها بالمسامير.. لاحظت عدة احياء شعبية لم أرها منذ أكثر من ثلاثة عقود.. لم يتغير منها شيء عدا إنها بدت اكثر قدماً مما كانت عليه!..

شاهدت السراجي وعويسيان والبهادرية وحمدان وكوت الصلحي ومحيله والصنكر والسبيلات وابو مغيرة ونهر خوز المشهورة بحلاوتها المتميزة والفاخرة (حلاوة نهر خوز).. وحين وصلت إلى منطقة (الشيخ إبراهيم) فوجئت إنها (غيرت) اسمها بعد سقوط النظام - كان اسمها (العوية) أي العوجة، ولكن اسمها الجديد، كما اخبرني رئيس المجلس البلدي، جاء ليقتلع أي اثر لصدام، حتى لو كان بسيطاً!!.

اخترقت السيارة عدة اسواق وقرى وأنهار وجداول، ورحت اتابع بهدوء احياء العميرية، باب طويل، باب ميدان، اللبانة، باب سليمان، السيبة، (التي اشتهرت كثيراً في اعوام الحرب العراقية الايرانية)، ثم الاسمدة وجيكور، قرية السياب القديمة، ومسقط رأسه، واخيراً الحي العسكري.. قلت مع نفسي، وكأنني فرغت من مهمتي: إذن هذا هو (كل ابو الخصيب)، بعد ثلاثين عاماً!.. نخل واسواق واحياء شعبية ومقاهٍ.. ما زال كما هو.. فقط بات عتيقاً جداً، واكثر تلوثاً!!.

شهادات وفاة!

يقول السيد خلف حسن العاشور، رئيس المجلس البلدي في ابي الخصيب، الذي تأسس في ٣/ ٤/ ٢٠٠٣، أي قبل سقوط الصنم بستة أيام!! (نحن أول مجلس بلدي يشكل في العراق، وتألف من (٢١) عضواً، تم تعيينهم بالاتفاق والتراضي، لضبط الامن والنظام بعد هزيمة النظام السابق!)

واضاف (جميعهم يمثلون احزاباً دينية، إلا عضواً واحداً مستقلاً، واقول بصراحة، لم يدعمنا احد(!) زارنا المحافظ في ثاني ايام العيد الفائت ووعدنا بمبلغ مالي قدره (٢٥٠) الف دينار (!!) ومع هذا لم نتسلم لحد الآن سوى (١٠٠) دولار فقط، صرفت للمجلس كنثرية (!).. ثم طالبنا بسيارة واحدة فقط لتسهيل عملنا، ولم نحصل عليها لحد الآن (!). وطالبنا بتزويدنا باسلحة شخصية للدفاع عن انفسنا ولم يتم تزويدنا باي شيء(!).

ابو الخصيب، يضيف العاشور، تعاني شحة الماء (!)، وكل عائلة تشتري (ماء حلو - Roمن التناكر والمقطورات (!).. الكهرباء ضعيفة جداً (!) - كان التيار الكهربائي مقطوعاً وقتها - أما جسور (ابو الخصيب)، ما زال اغلبها محطماً (!)، والذي حطمها هو نظام صدام بالاضافة إلى المهربين (!) - روى لي أن شاحنة تريلة، كانت محملة بالسيارات المسروقة، وينوى تهريبها إلى ايران اجتازت الجسر (!)، فلم يحتمل وزنها الثقيل فتحطم (!).

تهريب العراق!

اعترف رئيس المجلس البلدي السيد خلف حسن العاشور بوجود ظاهرة التهريب (الشامل) عن طريق (ابو الخصيب) وقال (إنهم يهربون النفط والحديد والاغنام والطيور!).. ثم قاطعه السيد عبد القادر عبد الكريم رجب - العضو المستقل الوحيد - قائلاً (إنهم يهربون العراق كله(!؟).. وبعد (تردد) بعض اعضاء المجلس، اعترف الجميع بخطورة هذه الظاهرة وانتشارها في ابي الخصيب.

السيد عبد الباري علي التميمي المسؤول الامني في المجلس (ماذا نفعل للحد من التهريب؟، نحن لا نملك اسلحة ولا قوات، ولا نملك قرارنا.. القضية ليست من صلاحياتنا (!).

واعترف بقية اعضاء المجلس وهم السادة اقبال محمد خليل وحسن صالح حسن وعبد الباري عبد الزهرة السلمي بانتشار التهريب عبر (ابو الخصيب) واكدوا أنهم ليس بوسعهم عمل أي شيء للحد منه، لأنه خارج عن صلاحيتهم (!) وروى السيد حسن صالح حسن عن مشاهدته لعملية تهريب في وضح النهار وقال: (شاهدت باخرة تقوم بتهريب النفط إلى ايران! وقمت على الفور بابلاغ الشرطة، ولكنني فوجئت بردهم حين قالوا: هذه ليست من صلاحيتنا وإنما من صلاحية الشرطة النهرية(!).. ثم ابلغت القوات البريطانية فلم يأبهوا بي(!).

جسور محطمة!

اطلعني السيد خلف حسن العاشور / رئيس المجلس على كتاب رسمي صادر من محافظة البصرة - مكتب نائب المحافظ لشؤون المجالس البلدية ومرسل إلى مديرية طرق وجسور البصرة - العدد ب - ٤ - ٢٨٤٧ في ٢٦/ ٥/ ٢٠٠٤، ويطالب فيه المديرية باصلاح وإعادة تأهيل (٣٦) جسراً محطماً منذ سقوط النظام في مناطق اللباني، و(العوجة)، والصنكر، والحي العسكري، وعويسيان، وبلد سلطان، وكوت الصلحي، وباب ميدان، والاعميرية، وحمدان، اضافة الى الجسور المشيدة على انهار: بيت الهارون والصانع وباب العريض والعسماوي والقنطرة وغيرها!!

مجلس بلدي، ولكن!

حديث رئيس المجلس البلدي، والمداخلات العديدة من قبل اعضائه، عن الاعمال التي قاموا بها منذ تعيينهم تلخصت في المساهمة في توزيع النفط والغاز وتوزيع عشرة آلاف قطعة أنابيب مياه على العوائل - كانت موجودة في مخازن الدولة، والمساهمة في فتح ميناء (ابو فلوس) والحفاظ على دوائر الدولة كافة من موجة السلب والنهب، والمساهمة بازالة الالغام مع المنظمات الانسانية، وجرد بيوت المعارضين لصدام التي هدمها النظام السابق، وجرد عوائل الشهداء - اكثر من الف عائلة! - إضافة إلى جرد العوائل العراقية العائدة من ايران بعد سقوط النظام السابق، واقامة ندوات لتوعية المواطنين، وتسهيل امور دوائر الدولة، وجرد كافة المشاكل التي يعانيها ابناء المدينة وتسليمها إلى المنظمات الانسانية، والاشراف على انتخابات الكثير من الدوائر الرسمية وغيرها!..

رئيس المجلس (اقسم) بأن (ابو الخصيب) خالية من بيع الخمور والمخدرات، واضاف (الكبسلة) موجودة في الخفاء فقط!!

(خصيباويات)

البطالة في ابي الخصيب كبيرة.. شاهدت الكثير من العاطلين في المقاهي.. احدهم قال: (لا توجد فرص عمل في ابي الخصيب، ولا في البصرة كلها.. وإذا ما وجدت فهي نادرة جداً. وسرعان ما يكسبها (اهل الواسطة)!.. آخر قال (السراق.. اشتروا سيارات وبيوتاً، وفتحوا دكاكين)!

اهالي (ابو الخصيب) يتجمعون سريعاً حول الصحفي حال علمهم به، وكثيراً ما يرددون (اكتبوا على الماي، الكهرباء، البطالة، الخطف!) وما أن تسألهم عن أيما مساعدة تجدهم جميعاً متهافتين على تقديمها عن طيب خاطر. لا توجد في ابي الخصيب ظواهر سلب.. الجميع يعرف احدهم الآخر ويحبون الغرباء، ولكن مظاهر الفقر والحرمان واضحة جداً في سلوكهم واحاديثهم.. وبعضهم تحدث عن ظاهرة تسرب الاطفال والشباب من المدارس وتساءل قائلاً: (المدارس.. اشكد المتسوقين قال (عمي كلهه تهريب.. ظلت اصبور بالبصرة!؟) ثم اضاف: (لو تهريب، لو بيع على المحافظات، اصرفلهم!!).

اسئلة شبه ضائعة

اهالي (ابو الخصيب) يعتمدون على العشار في تبضعهم وقضاء حاجاتهم الضرورية، ولذلك فخط السير بينهما لا ينقطع طوال النهار.. بعضهم يعمل هناك، يبيع بضاعته في ساحة ام البروم، أو في شوارع العشار الاخرى ثم يعود مساءً - غالباً ما تكون تموراً - مكانس - مهفات... الخ.

لا يوجد في أبي الخصيب متنزهات ولا مدينة ألعاب ولا مكتبات ولا مقهى انترنت.. الحياة تبدو بسيطة وهامشية.. ووجوه الجميع تبحث عن أجوبة لأسئلة ضائعة!!

في الطريق العام، ليس بعيداً عن مركز ابو الخصيب، احترقت سيارة تاكسي نتيجة خلل فني.. شاهدت السائق يحوم حولها غاضباً، ويهيل عليها التراب بكفيه وقدميه من دون جدوى.. يعرف إن النار اكبر من ضيق محاولته ولكن..!

بعض الاهالي فعلوا مثله، ثم توقفوا واكتفوا بإحاطة السائق

ينراد لهه افلوس!)... امضيت ظهيرة حارة في ابي الخصيب، وحين جلست على (تنكة) عند احد باعة المرطبات على الارصفة، سألته (ابو الخصيب) ماذا تبقى منها؟

(النخل المشيص!) أي غير المثمر.. واضاف (خلصناها كلهه حروب، حروب!!) وبين أن العديد من اهالي ابو الخصيب القدماء تركوا مدينتهم وسكنوا في محافظات أخرى.. وحين سألته عن ظاهرة التهريب في ابي الخصيب، فوجئت بسرعة رده، قال (أوه.. ابفلس) أي منتشرة جداً!.. واضاف (انواع.. بالبواخر، بالمهيلات، بالتريلات!)..

ثم سألته عن المهربين ومن يتعاون معهم: فاجاب (عصابات وايد!) أي كثير تساءل قائلاً: (يا هو يكدر عليهه بهاي الفوضى؟!).. ثم دخلت في سوق (ابو الخصيب) فوجدته فقيراً، لا يسر الناظرين.. اندهشت من (اختفاء) اسماك الصبور والزبيدي، التي (كانت) مكدسة على الأرصفة في موسم الصيف، وتباع (بأفلاس معدودة)!.. احد ومساءلته!!.. لم اسمع ابداً من جميع الواقفين، بمن فيهم السائق المنكوب، تلك الجملة (الطبيعية جداً)، التي وقفت على اطراف لساني.. اين سيارة الاطفاء!؟

في ابي الخصيب، يعرف الجميع على ما يبدو، أو أنهم على قناعة من، أن الحرائق هي حالة طبيعية ومألوفة، ولا ينبغي القضاء عليها!؟ بل يجب أن تملك حريتها كاملة، لكي تكمل قانون الهلاك في ذلك المكان، قبل ان تغادره إلى مكان آخر!؟

شوق يهزدمي اليك

الحديث عن موت الامكنة يقودنا دائماً إلى صورتها الأولى.. ليس ذلك شوقاً ولا هروباً، بل هو اصرار حقيقي على فهم الصورة التي آلت اليها.. الصورة التي هي أمامنا الآن، الواقع!

ومعنى هذا إننا لن نرضى إلا بمحاربة الهلاك، إلا بمعاداته.. لاحظوا معي هذه الصورة، وساعمل بآلية رؤيتي، آملاً أن لا أكون مخطئاً..

(كان يا ما كان، في بصرة ايام زمان.. كان شبابها، في مطلع السبعينيات، كمثال ليس غير.. يعقدون من حين لآخر، هدنة مع بؤسهم المتحول.. كانوا يستأجرون قارباً (شختورة) من مكان تجمعهم الجميل قرب تمثال السياب، بمبلغ (اسطوري) قدره خمسة دنانير، يصنعونه من (وقاحة) أحلامهم (انصاف وارباع دنانير ودراهم، خردة)، ليخلقوا أزهى ايامهم - يوم الحياة -!!، وهو طقس بسيط جداً، يتمثل بسفرة نهرية من العشار إلى كازينو (ابو الخصيب)، رحلة عمرها سويعات، ولكن دقائقها لا تحصى كانت مليئة (بالصفكة البصراوية والبصرة ما عذبت محب، واحيا واموت عالعشار، والله ايخلي.. صندوق امين البصرة، وهلي سود العكل، بيض الدشاديش...).

(كنا نستلقي على سقف الشختورة، نحدق في الغيوم الهاربة، وعلى جانبينا مئات الآلاف من رؤوس النخيل، وماء شط العرب، الذي كنا نغرف منه بأيدينا ونشرب!! او نرميه على وجوه وثياب بعضنا البعض...

ولم يتوقف الحلم بتوقف الشختورة قبالة الكازينو، بل ينمو ويزداد.. ندخل الكازينو لننعم مع العشرات من الرجال والنساء الاجانب، من روس ويوغسلافيين وجيك وبولونيين.، وسرعان ما نعقد صحبة جميلة معهم، نجلس معاً نأكل ونشرب ونتحاور ونرقص، ثم نغادر الكازينو جميعاً رغم (تحذيراتهم) لنا بضرورة السير بمجموعتين، خشية عيون المخبرين وتقاريرهم! ولكننا مع هذا، كنا نفترق ثم سرعان ما نتوحد في مسيرتنا المجنونة إلى ييكور - (جيكور) لزيارة (منزل الاقنان) والتجول في غرفه المظلمة، أو لصعود على سطحه بحذر شديد - كان يهتز بنا بقوة!! كنا نقضي اكثر من ساعة في حديقته المهملة، نردد باعلى اصواتنا (غريب على الخليج. وشناشيل ابنة الجلبي..، واقبال و... شوق يهز دمي اليك، كأن كل دمي اشتهاء!..لا تنكروا نعم العراق.. خير البلاد سكنتموها!!!).. وبعدها نمضي في مسيرة راجلة طويلة إلى (حمدان)، بين بساتين النخيل الكثيفة واشجار السدر والهمبة والخرّيط.. وكان أصدقاؤنا الاجانب يهزون رؤوسهم اعجاباً أمام جمال الطبيعة وهدوئها الساحر، ويرددون معنا (بسرا.. بسرا)! - أي بصرة.. وقبل الغروب، نهرب ببطء من نخيل حمدان والسيبة والسبيلات، عملاً بنصيحة السياب، ونستأجر سيارة أجرة، للعودة إلى العشار، إلى ذلك المكان الذي نفترق فيه ونزحف إلى بيوتنا بخطى مذبوحة، كأنها لا تريد أن تبتعد اكثر عن رائحة جيكور ونهر خوز(!)..

الآن، اتضح المشهد، مشهد (أمس البصرة الآن).. هل انا مخطئ؟، لا أتمنى ذلك!!

الجراديغ

اشتهرت البصرة بالجراديغ.. وهي مصانع كبس التمور، أي تعليبها.. مصانع اهلية يملكها بعض أثرياء البصرة القدماء، إضافة إلى شركات انكليزية قديمة!

ويقول الحاج (عبد الله سلمان الفهد) أن اشهر الجراديغ كان يسمى (بيت الأصفر، وشركة دستريك) اضافة إلى جراديغ اخرى عديدة.. وكان عملها موسمياً، يصاحب موسم نضج التمور، ابتداءاً من شهر ايلول تقريباً. فقبل هذا الشهر بكثير، يقبل الفلاحون على قص العثوق قبل نضجها، أي وهي (خلال) بتضخيم اللام - هكذا يسمونها وهي صفراء - والسبب يعود إلى أن كل الأسر الفلاحية تعتمد عليه كغذاء رئيس لكل وجباتهم بسبب (فقرهم) أولاً، وبسبب كون تناوله في تلك الشهور من كل عام يمثل عادة قديمة جداً، اضافة إلى سبب مهم ثالث وهو أن كل العوائل البصرية على الاطلاق تعتبره فاكهة يومية لا بد من تناولها في وجبات الفطور والضحى والغداء وبعد القيلولة، وفي العشاء وآخر الليل في سهراتهم الجميلة مع الضيوف!

وهذا هو ما يدفع الفلاح على بيعه وهو (خلال) لجني الارباح مبكراً، بعد عام من الضنك و (الفقر)!!

ويضيف (الفهد): في موسم القصاص، تهرع الأسر الفلاحية جميعاً إلى قص عثوق التمر وجمعها، وعزل حصة كبيرة منها لأيام الشتاء القاسية!، حيث تتعاون الاسرة على كبس التمور في تنكات او قواطي او في خصاف او حلانة مصنوعة من خوص النخيل، أما الحصة الاكبر من التمور فتباع على مالكي الجراديغ، حيث يبدأ عملهم من تلك اللحظة، بجمع العمال من رجال ونساء وعجائز وشباب للعمل في الجراديغ طوال النهار والجرداغ، يقول الحاج: هو مصنع يتم فيه ازالة العنق من التمرة، ثم شقها بسكين، لازالة الفصم (النوى) وجمعه في صناديق، ومن ثم كبسه بعد اضافة الجوز واللوز والهيل، ويتم ذلك وفق درجات من حيث نوعية التمور، وطريقة تعليبها.

أما النوى والعنق، فيجمع ويستخدم كحطب للتنانير(!)، وفي ايام القحط الذي حصل بعد الحرب العالمية الثانية، طحنه اهالي البصرة وخلطوه مع الطحين واكلوه!! - حصل ذلك في البصرة مرة أخرى في منتصف التسعينيات من القرن الماضي ايام الحصار، وعرف وقتها بالطحين الأسود!!

براءة ذمة

تقول الحاجة أم عادل (٧٨) عاماً.. كنت اسكن في حي (العالية)، وكان متعهد التمور يأتي إلى محلتنا بسيارة (لوري) محملة بصناديق التمور من الجرداغ، فتأخذ كل اسرة من (٥ إلى ٣٠) صندوقاً، وتعمل في بيتها على (تفليس) التمر - أي استخراج النوى منه - ثم تعيد الصناديق في اليوم التالي، أو بعد يومين مع (كيس النوى) إلى المتعهد، لاستلام حصة جديدة.. وكنا نتقاضى على كل صندوق (٧٠) فلساً(!) ومجموع ما نحصل عليه كان يعيننا على تدبير شؤوننا.. وكان المتعهد (يبرينه الذمة) على ما نأكله من التمر اثناء عملنا، أما اذا احتفظت عائلة بجزء منه فيعتبره سرقة!!

شط العرب وداعاً

هوية شط العرب، غير المزيفة هي الغروب والليل والاضواء المتلألئة في امواجه، تلك القادمة من البواخر والمراكب والمهيلات، أو من مصابيح التنومة غرباً.. وهوية شط العرب هي النوارس والسابلة والباعة والنوادي.. ولكن صدام مزق هذه الهوية بقصوره، وبتماثيل ضحاياه التي كانت تشير اليه، إلى قاتلها، وليس إلى (غيره)!!، وما أن اختفى هو ونظامه حتى اختفت التماثيل كلها، واختفت اصابع الضحايا التي كانت تشير اليه بوضوح!!

الشط لم يسترجع هويته حتى بعد رحيل (مستعمرة).. احتله الخمارة وباعة المشروبات الروحية ومتعاطو المخدرات و (الكبسلة)، ليصبحوا اسياده الجدد في (بارهم) الجديد (بار الفقير)!!، الذي يبدأ دوامه من أول خيط اسود من الليل وحتى اشعار آخر!!

لقطة فاشلة!

ادهشني وصدمني بائع حفنة من المهفات والمكانس.. عجوز نحيف شبه اعمى يجلس على الرصيف، ليعيش على ما يبيعه في ذلك النهار الساخن.. تساءلت، وانا اقف امامه: هل أنا في زيارة لمتحف طبيعي؟.. اين البصرة، لكأنها مصابة (بالتدرن الحضاري!؟.